

سلسلة تأملات في آيات ٧

قصة

وَصَيَّا الْقَهَّارَاتِ

لابنه



تأليف

الشيخ مصطفى العدوي

مكتبة مكة

موعظة لقمان رضي الله عنه لولده

والفوائد

المستنبطة منها

إعداد

أبي عبد الله

مصطفى بن العدوي

مكتبة مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وليّ الصالحين ، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا - .

وبعد :

فدائمًا خيرُ القصص ، وخير المواعظ ، وخير الحِكَم ، تلکم القصص والمواعظ والحِكَم الواردة في كتاب الله ﷻ ، وفي سُنَّة رسول الله ﷺ ، إذ الله ﷻ قد خلق الخلق ، وهو - سبحانه - أعلم بهم ، وأعلم بما يُصلحهم وينفعهم .

قال سبحانه : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١٤﴾

[الملک: الآية ١٤] .

ولما كانتِ الذکرى تنفع المؤمنین ، كما قال تعالى :

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذَّارِيَات: الآية ٥٥].

ولما كانت المواعظ ترقق قلوبهم وتردُّهم إلى الحق ردًّا جميلاً ، وتُبصرهم بما ينفعهم ، فمن ثمَّ أمر الله وذَكَر - سبحانه - بها .

قال الله تعالى لنيِّه محمد صلَّى الله عليه وآله : ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النِّسَاء: الآية ٦٣].

وقد امثال النبي صلَّى الله عليه وآله أمر ربِّه خيرَ امثال ، ومن هذا ما ذكره العرباض بنُ سارية رضي الله عنه قال ^(١) : «وَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ» .

وقد قال بعض أهل العلم عند تفسير قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: الآية ١٦] :

قال في تفسير قوله تعالى : ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي :

ابتعدوا زمناً طويلاً عن المواعظ والتذكير، فلما كان ذلك تسربت القسوة إلى القلوب.

فعلى الشخص أن يتعاهد نفسه باستماع المواعظ الحين بعد الحين، ولا يغفل عن ذلك، وذلك كي تزكو له نفسه، ويصفو له قلبه ويلين، وتندرف الدموع من عينيه، ويعقل عن الله ﷻ قوله وأمره ونهيه، فضلاً عن إصلاح معتقده، وإحسان عمله، وإخلاص نواياه، وما وراء ذلك من الفقه في الدين، وحسن المعاملات مع المخلوقين.

لذا؛ ولغيره شرع الوعظ وشرع التذكير!!.

وهذه موعظة لقمان رضي الله عنه لولده:

يُذَكِّرُنَا الله تبارك وتعالى بها كي نتأملها ونتدبرها، ونعمل بمقتضاها، فضلاً عن تلاوتها، إذ هي قرآنٌ يُتلى، وذكُرٌ يُرَقِّقُ الله به القلوب، ويُورِثُ الله به الخشية، وتنزل معه الملائكة والسكينة.

فإلى هذه الموعظة وما فيها من النفع العميم، والخير الكثير الجزيل، والبركات المتوالية المتتابعة، فكتاب الله

كتابُ مباركٌ، وكل ما فيه إنما هو خيرٌ وبركةٌ، نسترشد به ونهتدي، ونستضيء به ونستنير، فإلى هذا الكتاب العزيز، إلى هذا الكتاب الكريم المجيد، هذا الكتاب الحكيم المبارك.

نسأل الله أن يعلمنا إِيَّاه، وينفعنا بما فيه، ويجعله حجةً لنا لا علينا، وأن يجعله شفيعاً لنا يوم نلقى ربنا، وأن يورثنا به أعالي الجنان وفسيحها.

كما نسأله - سبحانه - أن يجمع به شمل المسلمين، وأن يؤلف به بين قلوبهم، وأن يُعليه فوق كل كتاب، ويظهره على كل الكتب... آمين.. آمين... آمين.

هذا؛ وصلِّ اللهم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم،
والحمد لله رب العالمين

كتبه

أبو عبد الله

مصطفى بن العدوي

مصر - الدقهلية - منية سمبود

الموعظة كما جاءت في كتاب الله عجلقال الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُ اللَّحْمِ بَيْنَ يَدَيْهِمَا أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ

أَنكَرَ الْأَصَوْتَ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ [لقمان: ١٢ - ١٩].

معاني المفردات الواردة في هذه الموعظة:

معناها	الكلمة
أعطينا - رزقنا - علّمنا	﴿ءَاتَيْنَا﴾
محمود على كل حال	﴿حَمِيدٌ﴾
يُذَكِّرُهُ - يُخَوِّفُهُ	﴿يُعِظُهُ﴾
ضعفًا على ضعفٍ - جهدًا على جهدٍ	﴿وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ﴾
- مشقة فوق مشقة	
فطامه بعد عامين - تربيته - إرضاعه	﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾
بعد وضعه	
حاربك - اجتهدوا لإجبارك	﴿جَاهِدَاكَ﴾
على فعل شيء	
اسلك طريق	﴿وَاتَّبَعَ سَبِيلَ﴾

معناها	الكلمة
رجع إليّ - سلك طريقي - أقبل عليّ فأخبركم	﴿أَنَابَ إِلَى﴾ ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ﴾
زنة حبة - وزن حبة	﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾
حافظ وداوم عليها	﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾
يُحْضِرُهَا اللهُ ^(٢) يوم القيامة	﴿يَأْتِي بِهَا اللَّهُ﴾
عليم بالأشياء وإن تضاءلت	﴿لَطِيفٌ﴾
الأمر التي أمر الله بها وأكد على فعلها	﴿عَزَمَ الْأُمُورَ﴾
لا تُمل - لا تُعرض	﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَكَ﴾

(٢) كما قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧) [الأنبياء: الآية ٤٧] .

معناها	الكلمة
مختلاً - متبخرًا - متجبرًا جبار - مُتَعَالٍ مُتَكَبِّرٌ عَلَى النَّاسِ توسط في مشيك واخفض	﴿مَرَحًا﴾ ﴿مُخَالٍ﴾ ﴿فَخُورٌ﴾ ﴿وَأَقْصَدَ فِي مَشِيكِ﴾ ﴿وَأَغْضَضَ﴾ ﴿أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾
شر الأصوات - أقبح الأصوات - أشد الأصوات	



أما عن لقمان رضي الله عنه و رحمته الله :

فلم أقف في كتاب الله وحيي على شيءٍ بخصوصه إلا في هذه السورة المباركة، وكذا لم أقف على شيءٍ ثابتٍ عنه في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد قال الحافظ ابن كثير رحمته الله :

«هو لقمان بن عنقاء بن سدون، واسم ابنه ثاران في قول حكاة السهيلي».

وعن عمله: فقد قيل: إنه كان خيَّاطًا، وقيل: كان نجارًا، وقيل: كان راعيًا، وقيل: كان قاضيًا، فالله وحيي أعلى وأعلم !!.

ولقد ذكرت أوصافًا له كثيرة تدل على دمايته، فالله أعلم.

وقد قيل: إنه من الحبشة، وقيل: من السودان، والعلم عند الله.

وكلُّ هذا ليس بضائر، فالعبرة مأخوذة على كل حال،

والحمد لله .

فهو رجل آتاه الله الحكمة ، وذكرنا سبحانه بموعظته
لولده ، علَّنا ننتفع بها ونستفيد منها .

فمن ثمَّ لا تبذل جهدًا ، ولا تضيع وقتًا وراء البحث عن
نسبه وقبيلته وبلدته ، فلنسكت عما ترك الله ذكره في كتاب
الله ﷻ ، ولنسكت عما لم يذكره رسول الله ﷺ حفظًا
للجهد والوقت ^(٣) .

وهل لقمان رضي الله عنه نبي أم ليس بنبي؟

فأكثر أهل العلم ^(٤) : على أنه ليس بنبي ، وإنما هو

(٣) ولا نرهق أنفسنا أيضًا في البحث عن اسم كلب أصحاب الكهف ،
وقبائلهم ، ولا بلدة العزيز ، ولا غير ذلك .

(٤) والقول بعدم نبوته هو قول جمهور العلماء ، ذكره عنهم القرطبي ،
وابن كثير - رحمهما الله - وغيرهما من العلماء .

ومما استدل به على عدم نبوته ما ورد في بعض الآثار من أنه كان
عبدًا حبشيًا ، والرسول إنما تُبعث في أحساب قومها كما قال هرقل
لأبي سفيان سائلًا إياه عن حسب رسول الله ﷺ ، وقال =

عبد صالح آتاه الله ﷻ الحكمة، وعلمه إياها.

قال قتادة: «لم يكن نبياً، ولم يوح إليه».

وصحَّ عن مجاهد أنه قال: «كان لقمان رجلاً صالحاً ولم يكن نبياً»^(٥).

هذا؛ ويتقدم الموعظة ثناءً من الله ﷻ على لقمان
وبيان فضله ﷻ ونعمته عليه:

فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾، وهذا الشاء في هذا الموطن له فائدة عظيمة، فوصفه بالحكمة يقتضي الحثَّ على الاستماع إلى ما سيلقيه لقمان من الموعظة؛ وذلك لكونها مواعظ صادرة من حكيم، والذي وصفه بأنه أوتي الحكمة إنما هو الله ﷻ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: الآية ٨٧].

= أبو سفيان: هو فينا ذو نسب، فقال هرقل: وكذا الرسل تُبعث في أنساب قومها.

(٥) انظر (الطبري / ٢٨٠٧٩) فما بعده.

ثم إنها موعظة ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم، فدلّ ذلك على أنه يلزمنا الاعتناء بها وتدبرها، والتفكير فيها، والعمل بمقتضاها.

أما الحكمة فلها معاني كثيرة:

منها: الإصابة والساداد في القول والعمل.

ومنها: وضع الشيء في محلّه اللائق به، فلا يتكلم بكلمة في غير موضعها، فمثلاً إذا رأى المقام يحتاج إلى شدة اشتدّ، وإذا رآه يحتاج إلى إلانة ألان الخطاب.

ومنها: الفهم الجيد الصحيح، والعلم النافع، وحسن التعبير والتأويل.

وصح عن قتادة أنه قال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾: أي الفقه في الإسلام.

ومنها: الصواب في المعتقد والفقه في الدين والعقل.

ومن معانيها أيضاً: أنها العقل الراجح الذي يمنع صاحبه من سيئ التصرفات.

هذا؛ وأحياناً تُطلق الحكمة ويُراد بها السَّنة.

هذا؛ وقد بين الله ﷻ فضل الحكمة ومن يؤتاها:

فقال في كتابه الكريم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩].

وبين ﷻ مِثَّتَهُ على نبيِّه داودَ ﷺ بقوله: ﴿وَعَايَنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٠].

وعلى نبيِّه عيسى ﷺ إذ قال: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [المائدة: الآية ١١٠].

وكذا مِثَّتَهُ على رسوله ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ١١٣].

ثم، وبعد أن ذكر الله ﷻ النعمة التي أنعمها على لقمان، ألا وهي إيتاؤه الحكمة، أمره أن يقدم لذلك شكراً لله على ما مَنَّ به عليه، واختصه به من بين أهل زمانه

وأقرانه وخِلائه من الحكمة، فقال له: ﴿إِنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾،
قدّم شكرًا لخالقك، وذلك إقرار بالفضل واعتراف بالنعم،
ثم حتى تحفظ هذه النعمة وتزداد ولا تتحول ولا تزال،
فالذي رزقك الحكمة هو الله، فقدّم له شكرًا حتى يزيدك
منها، ولا يحولها إلى غيرك.

**فدائمًا شكر النعم سبب عظيم من أسباب زيادتها
ونمائها وحفظها، وكفران النعم سبب لزوالها ولتحولها
وصرفها:**

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ
وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٧].

أي: وإذ أخبر ربكم وأعلم ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم
من نعمي، ومن فضلي عليكم، ولئن جحدتم نعمتي ولم
تقدموا لها شكرًا فسيحلّ بكم العذاب الشديد إما في الدنيا
بزوالها، أو يجعلها نعمة، وإما في الآخرة.

فجديرٌ إذن بكل من أنعم الله عليه أن يقدّم لهذه النعمة

شكرًا، وكلما ازدادت نعم الله عليك لزمك أن تقدّم لها مزيدًا من الشكر.

فهذه مريم - عليها السلام - أنعم الله ﷻ عليها:

فقال سبحانه: ﴿يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ﴾ [آل عمران: الآية ٤٢] .

وقال الله لها: ﴿يَمْرِيْمُ اقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ﴾ [آل عمران: الآية ٤٣] .

وهذا نبي الله موسى ﷺ قال الله له - وقد أنعم عليه واصطفاه بالرسالة والتكليم - :

﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِيْنَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤] .

ونبي الله داود وولده سليمان ﷺ :

أنعم الله ﷻ عليهما بالذي أنعم، من تسبيح الجبال والطير مع داود، وإلانة الحديد له، والصوت الحسن الجميل، والحكمة وفصل الخطاب، وغير ذلك .

وكذا ما أنعم به - سبحانه - على سليمان عليه السلام من تسخير الرياح والجن، وفهم لغة الطير، وإسالة عين القطر له.

قال الله سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سَبَأ: الآية ١٣].

وكذا قريش:

لما أنعم الله عليها بنعمة الأمن والأمان، والرزق الذي يأتيها من كل مكان، وكونهم يذهبون إلى اليمن والشام كل عام آمنين مطمئنين وغيرهم يتخطف.

قال تعالى: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ۖ لِّأَلْفِهِمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ ۖ وَالصَّيْفِ ۖ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قُرَيْش: ١ - ٤].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال الله له: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الْكَوْثَر: الآية ١].

وقال له: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الْكَوْثَر: الآية ٢].

فكما أنا أعطيناك الكوثر - وهو الخير الكثير الذي منه
نهرٌ في الجنة، ومنه الحوض - فقدّم لذلك شكرًا ﴿فَصَلِّ
لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ ﴿٢﴾ [الكوثر: الآية ٢] .

ونحوه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ
﴿٢﴾ الَّذِي أَتَقَضَّ ظَهْرَكَ﴾ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ﴿٤﴾ [الشرح: ١ - ٤] ،
ثم قال له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ ﴿٧﴾ [الشرح: الآية ٧] أي:
فاجتهد في عبادة ربك، ﴿وَالِلَّهِ رَبِّكَ فَاَرْغَبْ﴾ ﴿٨﴾ [الشرح: الآية ٨]
في اللجوء إليه، ولتكن رغباؤك إليه .

وكذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَغَاوَى﴾ ﴿١﴾ وَوَجَدَكَ
ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ﴿٨﴾ ، ثم قوله: ﴿فَأَمَّا
الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ﴿٩﴾ [الضحى: الآية ٩] .

كما أننا آويناك إذ كنت يتيمًا فلا تقهر الأيتام .

وكما أننا هديناك إذ كنت ضالًّا ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾
[الضحى: الآية ١٠] .

وكما أننا أغنيناك إذ كنت عائلًا تعول غيرك .

فَحَدَّثَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَاشْكُرْهَا ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: الآية ١١] .

وهكذا كل من أنعم الله عليه يلزمه أن يقدم شكراً لله حتى تحفظ عليه نعم الله وتزداد.

هذا؛ ولأن نعم الله علينا لا تُحصى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] .

فجديرٌ بنا أن نُكثر من الحمد، وأن نُكثر من الشكر باليد وباللسان وبالقلب - أعاننا الله على ذكره وشكره وحسن عبادته - .

ثم بين الله ﷻ أن الشاكر إنما يعود ثواب شكره على نفسه:

فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [لقمان: ١٢] .

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦] .

وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

وكما في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم^(٦) في «صحيحه»: «لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا».

ويُبين الله ﷻ غناه عن خلقه وعن شكرهم له، فيقول تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: ومن جحد النعم وكفرها ولم يؤد شكرها، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ عنه وعن شكره.

وقوله تعالى: ﴿حَمِيدٌ﴾ أي محمود على كل حال، وإن كفر النعم الكافرون، وجحدها الجاحدون.

وكذلك فإن الله ﷻ يحمد صنائع المعروف التي يفعلها العباد ويتقربون بها إليه، وذلك حتى لا يتسرب إلى شخص، سؤال حاصله: إذا كان الله غنيًا عنا وعن شُكرنا، فلماذا نقدم هذا الشكر؟

فيكون جوابه: إن الله يحب منا صنائع المعروف.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران:

الآية ١١٥] .

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:

الآية ١٥٨] .

قال الطبري رحمته الله:

«وقوله: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِلَّهِ﴾ يقول تعالى ذكره: ولقد آتينا لقمان الحكمة، أن احمد الله على ما آتاك من فضله، وجعل قوله: ﴿إِنْ أَشْكُرْ﴾ ترجمة عن الحكمة؛ لأن من الحكمة التي كان أوتيها، كان شكره الله على ما آتاه.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ يقول: ومن يشكر الله على نعمه عنده فإنما يشكر لنفسه؛ لأن الله يجزل له على شكره إياه الثواب، وينقذه به من الهلكة ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ يقول: ومن كفر نعمة الله عليه، إلى نفسه أساء؛ لأن الله مُعاقبه على كفرانه إياه، والله غني عن شكره إياه على نعمه، لا حاجة به إليه؛ لأن شكره إياه لا يزيد في سلطانه، ولا ينقص كفرانه إياه من ملكه.

ويعني بقوله: ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود على كل حال، له الحمد على نعمه، كفر العبد نعمته أو شكره عليها، وهو مصروفٌ من مفعول إلى فَعِيلٌ. اهـ.

وها هي الموعظة مع شرحها وفوائدها وتفسير آياتها:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ [لقمان: الآية ١٣] ، أي: واذكر موعظة لقمان لابنه.

وهذا شأن أهل الفضل مع أبنائهم يقدمون لهم المواعظ، ويخوفونهم بالله، ويحذرونهم من عقابه، ويرشدونهم إلى ما يقربهم من ربهم ولقائه، ويسألون الله لهم الهداية^(٧).

(٧) كما قال الخليل إبراهيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: الآية ٤٠] .

وكما في دعاء عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: الآية ٧٤] .

كما في الدعاء: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف: الآية ١٥] .

تبدأ الوصية بالتحذير من الشرك :

﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ .

هكذا تبدأ الوصية بالتحذير من أخطر الأخطار، وأكبر الكبائر، وأعظم الذنوب .

نعم، فالشرك ظلم عظيم، كما قال الله تعالى .

إنه ذنب لا يُغفر، إذا مات عليه العبد :

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨] .

إنه كذب وافتراء على الله :

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ٤٨] .

إنه ضلال بعيد :

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: الآية ١١٦] .

إنه يحبط الأعمال ويذهب بثوابها:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[الأنعام: الآية ٨٨] .

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: الآية ٦٥] .

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ

أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: الآية ١٥١] .

إنه أكبر الكبائر:

قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» قُلْنَا:

بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ...» الحديث^(٨).

إنه يُحرّم الجنة على مرتكبه:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ

وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: الآية ٧٢] .

(٨) البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا .

وروى مسلم ^(٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي ؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ » .

وأخرج الإمام أحمد في «مسنده» ^(١٠) بإسناد صحيح عن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ» ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ : «الرِّيَاءُ» ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ - : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا ، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً » .

وأخرج البخاري ومسلم ^(١١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ

(٩) مسلم حديث (٢٩٨٥) .

(١٠) أحمد (٥ / ٤٢٨) .

(١١) البخاري (٦٥٥٧) ، ومسلم (٢٨٠٥) .

عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ إِلَّا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي».

هذا؛ وهذه الآية الكريمة مفسرة لآية في سورة الأنعام، ألا وهي:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢) ﴿[الأنعام: الآية ٨٢].

فلما نزلت شقَّ نزولها على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «ألم تقرأوا قول لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

وها هو الحديث بذلك:

أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ

وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣]» (١٢).

وفي بعض الروايات: «فأنزل الله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣]».

وقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] أي: لبخس عظيم للنفس، فالمشرك بخس نفسه حقها وظلم نفسه ظُلْمًا شديدًا، فلنفسه عليه حق، من حقها عليه أن يبحث لها عن أسباب سلامتها، وأسباب نجاتها، وأسباب سعادتها، ويفعل ما يجلب لها به السعادة والسلامة والنجاة، أما كونه يُهلكها ويُريدها ويتسبب لها في عذاب لا يزول، ولا يتحول، ويتسبب لها في دخول الجحيم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، فقد بخسها حقها بلا شك، وأي بخس أعظم من هذا البخس!!؟

وأيُّ ظلم أعظم من هذا الظلم!!؟

عيادًا بالله من الظلم والظلمات !! .

ثم إن أعظم حقًّا لله علينا: أن نعبد ونوحده لا نشرك به شيئًا، فمن لم يؤد هذا الحق فقد ارتكب أعظم الظلم .

وصدق الله إذ قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:

الآية ١٣] !! .

ثم تأتي الوصية الثانية بعد النهي عن الشرك:

ألا وهي الوصية بالوالدين:

فبعد بيان حق الله وَجَلَّ علينا، ألا وهو توحيده وعدم الشرك به، يأتي وبعد حق الله ورسوله، حق الوالدين .

فحق الوالدين أعظم حق بعد حق الله وَجَلَّ ورسوله ﷺ

وبين يدي الحديث عن حق الوالدين، أقول -

وبالله تعالى التوفيق - :

ها هنا لفظة، حاصلها: أن لقمان رضي الله عنه لم يقل لولده، واستوص بوالديك خيرًا، ولم تجر وصية بالوالدين على لسانه، وذلك حتى لا يظن المنصوح أن الناصح إنما ينصح

من أجل نفسه، وكذا لا يظن من قدمت له الموعظة أن الواعظ إنما يعظ لحظ نفسه، بل جعلت الوصية بالوالدين من الله ﷻ، فحصل تحول في الخطاب.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُ اللَّحْمِ فِي غَمٍّ إِنَّ أَشْكُرَّ لِي وَلَوْلَاكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: الآية ١٤].

وبعد هذه اللفتة أقول - وبالله تعالى التوفيق - :

لقد تكرر التذكير بحق الوالدين وبيبرهما في عدة آيات من كتاب الله ﷻ بعد الأمر بتوحيد الله ﷻ، وبعد النهي عن الشرك، وذلك لبيان عظيم حقهما، ودلت على هذا أدلة كثيرة من الكتاب والسنة.

فمن ذلك ما يلي :

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: الآية ٣٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ

أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَالْوَالِدَيْنِ إِحْسِنَا ﴿[الأنعام: الآية ١٥١] .
وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالْوَالِدَيْنِ
إِحْسِنَا﴾ [الإسراء: الآية ٢٣] .

**وقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل أن يحسنوا
إلى الوالدين:**

فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ
إِلَّا اللَّهَ وَيَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: الآية ٨٣] .

فانظر إلى هذه النصوص ، وكيف وأن الأمر بعبادة الله
وَجِبَل وحده لا شريك له جاء ويُعقبه الأمر بالإحسان إلى
الوالدين؟ فترى على ماذا يدل هذا؟! .

**ثم انظر أيضاً إلى حديث النبي ﷺ الذي يُبين منزلة
برّ الوالدين من بين سائر الأعمال:**

وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم ^(١٣) من حديث

عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي.

وأخرج الإمام أحمد ^(١٤) بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «نِمْتُ فَرَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ، فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِيٍّ يَقْرَأُ، فَقُلْتُ: «مَنْ هَذَا؟» قَالُوا: هَذَا حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَذَاكَ الْبِرُّ، كَذَاكَ الْبِرُّ»، وَكَانَ أَبَرَّ النَّاسِ بِأُمِّهِ».

وحديث الثلاثة ^(١٥) أصحاب الغار، وتوسل واحد منهم بیره بأبويه مشهور صحيح ومعروف، وفيه: أن الله فرج بسبب ذلك شيئاً مما هم فيه.

(١٤) «المسند» (٦/ ١٥١ - ١٥٢).

(١٥) انظره في البخاري (٥٩٧٤)، ومسلم (٢٧٤٣).

وفي «الصحيحين»^(١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال :
جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ
أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟
قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ
مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ».

(١٦) البخاري مع «الفتح» حديث (٥٩٧١)، ومسلم مع النووي (٥/٤١٠).

قال النووي رحمته الله: وفيه الحثُّ على برِّ الأقارب، وأن الأمَّ أحقُّهم
بذلك، ثم بعدها الأب، ثم الأقرب فالأقرب.
قال العلماء: وسبب تقديم الأم كثرة تعبها عليه، وشفقتها
وخدمتها، ومعاناة المشاق في حمله ثم وضعه ثم إرضاعه ثم
تربيته وخدمته وتمريضه وغير ذلك.
ونقل الحارث المحاسبي إجماع العلماء عن أن الأم تفضل في البرِّ
على الأب، وحكى القاضي عياض خلافاً في ذلك، فقال
الجمهور بتفضيلها.

وقال بعضهم: يكون برُّهما سواءً، قال: ونسب بعضهم هذا إلى
مالك، والصواب الأول لصريح هذه الأحاديث في المعنى
المذكور. والله أعلم.

وعند البخاري في «الأدب المفرد»^(١٧) بإسناد حسن من

(١٧) البخاري في «الأدب المفرد» (٣ ج ١ ص ٤٤).

وقال فضل الله الجيلاني رحمته الله تعالى في تعليقه على هذا الحديث من «الأدب المفرد»:

الأم مقدمة في الإجماع في البرّ على الأب، وأن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البرّ، وذلك لتحمل المشاق في الحمل والوضع حتى تكاد تموت، ولا أقل أن تذوقه في كل وضع إذا ضربها الطلق، ثم المحنة زمن الرضاع إلى أن يكبر الولد ويستغني عن خدمتها، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ثم تشارك الأب في الإنفاق والتربية وأنواع من المؤنة والخدمة ما داما حين (كذا ذكره السيوطي) أخذ ذلك من تكرار حق الأم، والأظهر أن يكون تأكيداً ومبالغة في رعاية حق الأم، وذلك لتهاون أكثر الناس في حق الأم بالنسبة إلى الأب؛ لأن أمر الأم كلّ في البيت تحت الستور ولا يطلع عليه الناس، فيجتري الناس على عقوقها أكثر من عقوق الوالد حياءً من الناس، وكذا قوته تزجر عن الجراءة عليه، وضعفها يحمل الدنيء على الإساءة إليها، ولا يبعد أن الشريعة بالغت في البرّ بها أكثر من البرّ بالأب مواساة لها ومراعاة لضعف قلوب النساء وشفقة على الولد، مع أن الأب ليس أنقص حقاً من حقوقها؛ لأن الأم للين طبعها وضعف بنيته لا تستطيع أحياناً =

طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قلت: مَنْ أَبْرُ؟ قَالَ:
«أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ:
«أَبَاكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «الْأَدْنَى فَالْأَدْنَى».



= أن تتحمل إباءه وسوء خلقه فتعجل أن تغضب فتسرع بالدعاء عليه .
والمذكور في كتب الفقه أن حق الوالد أعظم من حق الوالد
وبرّها أوجب، كذا في شرعة الإسلام . [إنجاح الحاجة، بزيادة]

وهذه وصية بالأم أيضًا

وعن المقدام بن معديكرب أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ - ثَلَاثًا - ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَأَلْقَرِبِ» (١٨).

وهذا يدل على فضل برّ الأم:

فكما هو معلوم من منهج ابن عباس وطريقته في الفتيا في أبواب الكفارات أنه يفتي - إذا لم يكن في تحديد الكفارة نص - بكفارة توازي الذنب المرتكب أو تفوقه حتى يمحو أثره ويزال، كفتياه في إتيان الحائض، وفتياه في من ترك واجبًا من واجبات الحج وغير ذلك.

وها هو هنا يفتي بفتوى فاقراها وأمعن النظر لترى كيف منزلة برّ الأم مع الكفارات:

أخرج البخاري (١٩) في «الأدب المفرد» بإسناد صحيح

(١٨) صحيح لشواهده: أخرجه ابن ماجه (٣٦٦١).

(١٩) «الأدب المفرد» (أثر ٤ ج ١) ص (٤٥).

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتاه رجل فقال: إني خطبت امرأة فأبّت أن تنكحني، وخطبتها غيري فأحبّت أن تنكحه، فغرتُ عليها فقتلتها، فهل لي من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا، قال: تب إلى الله تعالى، وتقرب إليه ما استطعت، فذهبت فسألت ابن عباس: لم سألته عن حياة أمه؟ فقال: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله تعالى من بر الوالدة.

وهذا أثر أيضاً: بإسناد صحيح عن ابن عمر، فعند البخاري في «الأدب المفرد»^(٢٠) من طريق طيسلة بن مياس قال: كنت مع النجدات^(٢١) فأصبت ذنوباً لا أراها إلا من الكبائر فذكرت ذلك لابن عمر قال: ما هي؟ قلت: كذا وكذا، قال: ليست هذه من الكبائر، هنّ تسع: الإشراك بالله، وقتل نسمة، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وإلحاد في المسجد، والذي

(٢٠) «الأدب المفرد» (أثر ٨ ج ١) ص (٥٢).

(٢١) **النجادات:** أصحاب نجدة بن عامر الخارجي، قاله فضل الله الجيلاني.

يستسخر، وبكاء الوالدين من العقوق.

قال لي ابن عمر: أتفرق من النار، وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: إي والله! قال: أحبي والداك؟ قلت: عندي أمي، قال: فوالله لو ألت لها الكلام، وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة، ما اجتنبت الكبائر.

هذا؛ وقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ بيان لسبب الوصية بالوالدين، وتذكير بإحسانهما المتقدم، وبحق الأم خاصة.

فإن سأل سائل عن سبب الوصية بالوالدين، وسبب الاعتناء بالأم؟

فلذلك أسباب منها:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ في بطنها ﴿وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي ضعفاً على ضعف.

فالمرأة بجبلتها ضعيفة، ثم الحمل يضعفها أكثر وأكثر، ويجهدا أشد وأشد.

وأيضاً من أسباب الوصية بها: كونها أرضعته وقامت على تربيته وخدمته بعد إرضاعه، وذلك مدة الرضاعة التي بها يستغني عن سائر المطعومات، ألا وهي عامان.

قال تعالى: ﴿وَفَصَّلْهُ فِي عَامَيْنِ﴾، أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين.

ثم أمر الله ﷻ بتقديم الشكر له سبحانه، فله النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن أولاً وآخرًا.

وأمر أيضاً بتقديم الشكر للوالدين، وعهد إليه بذلك.

فقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ تذكيراً بحق الوالدين وحثاً على إكرامهما والإحسان إليهما والدعاء لهما كما قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٤].

أما قوله تعالى: ﴿وَالْيَ الْمَصِيرُ﴾، فتذكير بأن المرجع والمآب والمراد إلى الله ﷻ يوم القيامة.

فيجازي كلَّ عامل بعمله، وكل شاعر على شكره، أفضل الجزاء وأتمه وأوفره.

قال الطبري رحمته الله:

وقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ يقول: وعهدنا إليه أن اشكر لي على نعمي عليك، ولوالديك تربيتهما إياك، وعلاجهما فيك ما عالجا من المشقة حتى استحکم قواك.

وقوله: ﴿وَالِئِ الْمَصِيرُ﴾ يقول: إلى الله مصيرك أيها الإنسان، وهو سائلك عما كان من شكرك له على نعمه عليك، وعما كان من شكرك لوالديك، وبرك بهما على ما لقيا منك من العناء والمشقة في حال طفولتك وصباك، وما اصطنعا إليك في برهما بك، وتحننهما عليك.



﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ
أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾

وهذه الآيات الكريمات نزلت في سعد بن أبي وقاص

رضي الله عنه :

أخرج مسلم ^(٢٢) في «صحيحه» من حديث مُضْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ: حَلَفْتُ أُمُّ سَعْدٍ أَلَّا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللَّهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ - وَأَنَا أُمُّكَ - وَأَنَا أَمْرُكَ بِهَذَا.

قَالَ: مَكَثْتُ ثَلَاثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ، فَقَامَ ابْنُ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةٌ فَسَقَاهَا، فَجَعَلْتُ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي

وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ ﴿١٥﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]... فذكر الحديث.

وفي رواية عند الطبري (٢٣):

عن سعد بن مالك - وهو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - قال: نزلت فيَّ ﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ﴾ قال: لما أسلمت، حلفت أُمِّي لا تأكل طعامًا ولا تشرب شرابًا، قال: فناشدتها أول يوم، فأبت وصبرت، فلما كان اليوم الثاني ناشدتها، فأبت، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت، فقلت: والله لو كانت لك مائة نفس لخرجت قبل أن أدع ديني هذا، فلما رأت ذلك، وعرفت أنني لست فاعلاً أكلت.

وفي رواية أخرى عنه:

قال: قالت أم سعد لسعد: أليس الله قد أمر بالبرّ،

فوالله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فها بعضًا، ثم أوجروها، فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [العنكبوت: الآية ٨] .

وكما سلف فقد أمر الله ﷻ بالإحسان إلى الوالدين وأوصى بهما، وهذا يتضمن بلا شك طاعتهما، ولكن كما هو معلوم أن الطاعة إنما هي في المعروف، كما قال ﷺ (٢٤) .

وهنا يقول: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: وإن حرصا كل الحرص واجتهدا كل الاجتهاد، وضغطا بكل أنواع الضغوط عليك كي تترك دينك وتتابعهما على دينهما دين المشركين فلا تطعهما ولا توافقهما، ومع هذا الرفض رفض الدخول في دينها، ومع حرصهما على أن تتابعهما ورفضك لذلك، صاحبهما في

الدنيا معروفًا، أي أحسن إليهما بصور الإحسان التي تستطيعها دون أن يتأثر بذلك دينك، واتبع سبيل أهل الإيمان، واسلك طريقهم، واقتفِ آثارهم، فهذا قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: الآية ١٥] يعني: واسلك سبيل المؤمنين المطيعين لي الذين سلكوا طريقي، واستقاموا على أمري.

هذا؛ وقد قال الطبري رحمته الله:

«يقول تعالى ذكره: ﴿وَأِنْ جَهَدَاكَ﴾ أيها الإنسان والداك على أن تشرك بي في عبادتك إياي معي غيري مما لا تعلم أنه لي شريك، ولا شريك تعالى ذكره علوًّا كبيرًا، فلا تطعهما فيما أَرَادَاكَ عليه من الشرك بي، ﴿وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يقول: وصاحبهما في الدنيا بالطاعة لهما فيما لا تبعة عليك فيه فيما بينك وبين ربك ولا إثم.

وقوله: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يقول: واسلك طريق من تاب من شركه، ورجع إلى الإسلام، واتبع محمدًا

قال الطبري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَيضًا:

«وقوله: ﴿إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فَإِنِ إِلَيَّ مصيركم ومعادكم بعد مماتكم، فأخبركم بجميع ما كنتم في الدنيا تعملون من خير وشر، ثم أجازيكم على أعمالكم، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته.

فإن قال لنا قائل: ما وجه اعتراض هذا الكلام بين الخبر عن وصيتي لقمان ابنه؟ قيل ذلك أيضًا وإن كان خبرًا من الله تعالى ذكره عن وصيته عباده به، وأنه إنما أوصى به لقمان ابنه، فكان معنى الكلام: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣)، ولا تطع في الشرك به والديك ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، فإن الله وصى بهما فاستؤنف الكلام على وجه الخبر من الله، وفيه هذا المعنى، فذلك وجه اعتراض ذلك بين الخبرين عن وصيته.

أما المراد بقوله: ﴿إِنَّهَا﴾:

فقد قال بعض أهل العلم: إن المراد بقوله: ﴿إِنَّهَا﴾ أي الخطيئة أو المعصية.

وقول ثانٍ: إن المراد الشيء المعمول خيراً كان أو شراً.

وقول ثالث: إن المراد الرزق المقدر.

والمراد بالصخرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا إِنْ تَكُ

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ

قال بعض أهل العلم: إن المراد بالصخرة، صخرة تحمل عليها الأرض كلها، وهذا القول قال به عدد من العلماء، لكن لا أعلم عليه دليلاً من الكتاب ولا من السنة الصحيحة.

ومن ثم قال الحافظ ابن كثير رحمته الله:

«وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾

[لقمان: الآية ١٦] أنها صخرة تحت الأرضين السبع.

ثم قال: وهذا والله أعلم كأنه مُتَلَقًى من الإسرائيليات التي لا تُصدق ولا تُكذَّب، والظاهر - والله أعلم - أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة، فإن الله سيُبيدُها ويُظهرها بلطيف علمه.

فيوصي لقمان ولده ويعلمه ويذكره بمراقبة الله تعالى
قائلاً:

يا بني إن ما تعمله من خيرٍ أو شرٍّ مهما كان صغيراً، وإن كان صغيراً في وزن حبة الخردل، وكذلك إن كنت أسررتَه، وعملتَه في مكان خفيٍّ، وبالغت في إخفائه، فسواء عملته وأنت في صخرةٍ قد أحاطت بك من جميع جوانبها، فلم يرك أحدٌ من الخلق، أو عملتها في أيِّ مكان في السماوات أو في أي مكان في الأرض، يأت بها الله يوم القيامة، وتوزن لك في ميزان حسناتك، إن كانت حسنة، أو في كفة السيئات إن كانت سيئة، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا

حَسِينٌ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧] ، وكما قال تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٤٨﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٤٩﴾ .

وكما قال سبحانه : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿٤٩﴾ [الكهف: الآية ٤٩] .

وفي هذا تعليم الوالد ولده مراقبة الله تعالى ، وتذكيره بأن الله يراه حتى يعمل صالحًا .

هذا؛ وهناك قول آخر في الآية الكريمة:

حاصله أن قوله : ﴿إِنَّهَا﴾ المراد به الرزق ، فيكون المعنى : يا بني إن الرزق الذي كتب لك سيأتيك في أي مكان من أي مكان ما دام قد قُدِّرَ لك ، وهذا وإن كان صحيحًا ، إلا أن القول الأول عليه أكثر العلماء في تفسير الآية الكريمة ، والله تعالى أعلم .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم، ليمثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، أي: إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل. وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير الشأن والقصة. وجوز على هذا رفع ﴿مِثْقَالَ﴾ والأول أولى.

وقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾، أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾  وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السماوات أو الأرض،

فإن الله يأتي بها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَيْرٌ﴾، أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت، ﴿خَيْرٌ﴾ بديب النمل في الليل البهيم.

وقال الطبري رحمته الله:

وعنى بقوله: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ زنة حبة، فتأويل الكلام إذن أن الأمر إن تك زنة حبة من خردل من خير أو شر فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله يوم القيامة حتى يوفيك جزاءه.

ثم يواصل لقمان رضي الله عنه وصاياه لولده ومواعظه له قائلاً:

﴿يَبْنِي أَمِيرَ الصَّلَاةِ﴾ أي: حافظ عليها وداوم على فعلها وأدائها في أوقاتها وأحسن قيامها وركوعها وسجودها وسائر أركانها.

وَحَقُّ مَا قَالَه لِقْمَانُ لَوْلَدِهِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ عِمَادُ الدِّينِ
وَرُكْنُ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ - بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ - .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةٌ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ
الصَّلَاةِ...» (٢٥).

وإنها أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة:

قَالَ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢٦).

إنها تمحو - بإذن الله - الخطايا والذنوب:

قَالَ ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ
الْخَطَايَا» (٢٧).

لقد كانت ولا تزال وستزال شعارًا للصالحين:

(٢٥) البخاري حديث (٨)، ومسلم (١٦).

(٢٦) صحيح لشواهده: أخرجه أحمد (٤ / ١٠٣) وغيره.

(٢٧) البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

لقد قال الخليل إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: الآية ٤٠] .

لقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: الآية ١٤] .

وقال له ولأخيه هارون عليه السلام : ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [يونس: الآية ٨٧] .

وقال قوم شعيب لشعيب عليه السلام : ﴿أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧] .

قال عيسى عليه السلام : ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: الآية ٣١] .

وطائفة من الأنبياء ذكرهم الله في كتابه وقال : ﴿إِذَا نُنَالُ عَلَيْهِمْ ءَايَتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: الآية ٥٨] .

وأصحاب رسولنا الكريم - عليهم رضوان الله - :
﴿تَرْتَلِمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] .

وفي الجملة: ففضائل الصلاة لا تُحصى والأوامر بها لا تكاد تنتهي، والوصية بها تكاثرت وتعددت وتنوعت، والتحذير من تركها توارد من عدة وجوه.

فمن ثمَّ أوصى لقمان ولده بها، وأكَّدها عليها غاية التأكيد، ولا عذر لمسلم بالغ في تركها ما دام عاقلًا أو كانت المرأة حائضًا أو نفساء.

لا تترك الصلاة في سفرٍ ولا في حضرٍ، ولا في صحةٍ ولا في مرضٍ، ولا في شدةٍ ولا في رخاءٍ.

ثم يأمر لقمان ولده أن يكون أمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر:

وهذا يشمل كلَّ معروفٍ وكل منكرٍ، ولا يبتعد الشخص إذ قال: إن الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - بُعثوا لذلك، فقد بُعثت الرسل أمرةً بتوحيد الله ﷻ، ناهية عن الشرك به، وأعظم معروف بلا شك هو توحيد الله ﷻ، وأقبح المنكرات على الإطلاق هو الشرك بالله ﷻ.

ولقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [التحل: الآية ٣٦] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء: الآية ٢٥] .

ولقد نالت أمة محمد ﷺ الفلاح وكتبت لها الخيرية على سائر الأمم؛ لإيمانها بالله ﷻ، وأمرها بالمعروف، ونهيها عن المنكر:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠] .

وقال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٤) [آل عمران: الآية ١٠٤] .

إن النهي عن المنكر سبب من أسباب السلامة والنجاة:

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هُود: الآية ١١٦].

ولقد ذكر الله ﷻ القرية التي كانت حاضرة البحر، تلك التي اعتدى أهلها في السبت، ويُن الله ﷻ أن الذين نجوا هم الناهون عن المنكر.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٥].

وفي الحديث (٢٨) عن رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ

وَمَا أَرَادُوا هَلَكَوًا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَّوًا
وَنَجَّوًا جَمِيعًا.

إنه سبيل أهل الصلاح المنيبين إلى الله تعالى :

قال الله سبحانه : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ
يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران :
١١٣، ١١٤].

وسبيل أهل الإيمان :

قال الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة: الآية ٧١] .

وسبيل الذين باعوا أنفسهم لله ﷻ :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ بِآثِ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [التوبة: الآية ١١١] إلى قوله تعالى :
﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ

الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ
اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ [التوبة: الآية ١١٢] .

**ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كفارة
للدنوب والخطايا:**

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ
تُكْفَرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ» (٢٩) .

وكذلك فإنه صدقة على البدن:

فقد ذكر النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصدقات التي على ابن آدم، وقال:
«وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ» (٣٠) .

**ولقد حثَّ النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر:**

فقال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

(٢٩) البخاري (مع الفتح / ٢ / ٥٢٥)، ومسلم (١٤٤) .

(٣٠) مسلم بنحوه (١٠٠٦، ١٠٠٧) .

فَلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَوْعَفُ الْإِيمَانِ» (٣١).

ويزداد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأكيداً على أهل العلم:

قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: الآية ٦٣] .

ثم، وكما جرت العادة بذلك فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيراً ما يتعرض لأذى من أهل الشر والفساد، وذلك لكونه ينهاهم عن غيِّهم، ويمنعهم من المحرمات التي يريدون مواءمتها، ومن الشهوات التي يريدون قضاءها، ومن أكل أموال الناس بالباطل، وغير ذلك من المحرمات التي ركبوها ودأبوا على فعلها، فمن ثم لا يرضيهم صنيع المعارض لهم، ولا صنيع من يأمرهم وينهاهم فيقدمون له صنوف الأذى حتى يتركهم ويؤخِّلِي بينهم وبين ما يريدون من صور الإفساد في الأرض، فحيث

يثبت الله ﷻ أقوامًا على طاعته وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآخرون يتركون ذلك خوفًا من الناس ومن بطشهم.

فيوصي لقمان ولده بالصبر على الأذى وتحمل البلاء والمضي قُدُمًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستمرار في ذلك.

ومثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

فالتواصي بالحق أحيانًا يتبعه بلاء، فمن ثمَّ لزم التواصي بالصبر.

هذا؛ ولا يمنع أن يكون قوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ عامًّا في كل ما يتعرض له الشخص من البلاء، بلاءً كان في الجسد أو في المال أو في الولد، أو غير ذلك من صور الابتلاءات التي تستلزم صبرًا وتقتضيه.

والنصوص الواردة في فضل الصبر والحث عليه
وبيان ما أعد لأهله من الأجر كثيرة جداً:
أجترأ منها بالآتي:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ﴾ [الرُّم: الآية ١٠] .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٠] .

ولقد ذكر الله ﷻ أن الإمامة تُنال بالصبر واليقين:
قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا
وَكَانُوا بَيَاتِنًا يُوقِنُونَ﴾ (٢٤) [السَّجْدَة: الآية ٢٤] .

وبَيِّن - سبحانه - أنه أعد للصابرين الغرف وهي في
أعالي الجنان:

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا
وَيُلْقَوْنَ فِيهَا حَبَّةَ وَسَلَامًا﴾ (٧٥) خَلِيدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (٧٦) .

وقال - سبحانه - مُبِينًا فضيلة من صبر :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: الآية ٤٣] .

وبين - سبحانه - أنه يجب الصابرين :

فقال : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٤٦] .

ووردت الأوامر بالصبر والحث عليه :

في قوله تعالى : ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [أنفال: الآية

[٤٦] .

وقال تعالى : ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [التحل: الآية

[١٢٧] .

وقال سبحانه : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ

وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: الآية ١٥٣] .

وقال سبحانه : ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ إِلَّا

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ [البلد: الآية ١٧] .

وفي «الصحيحين»^(٣٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : «أَنَّ أَنَسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمْ يَسْأَلْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَعْطَاهُ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ نَفِدَ كُلُّ شَيْءٍ أَنْفَقَ بِيَدَيْهِ : «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لَا أَدْخِرُهُ عَنْكُمْ ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعَفَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ ، وَلَنْ تُعْطُوا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ» .

وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال : «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»^(٣٣) .

ووردت نصوص كثيرة في فضل الصبر على الأذى والصبر في الجهاد، والصبر على المرض، وعلى فقدان البصر، وعلى جهالات الناس وحقاقتهم، والصبر على أمراء الجور، والصبر عند الصدمة الأولى، وغير ذلك

(٣٢) البخاري (٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣) .

(٣٣) مسلم (٢٢٣) .

فنسأل الله أن يُصبرنا ويحفظ علينا إيماننا .

ثم يؤكد لقمان رضي الله عنه لولده على هذه الأمور التي وعظه بها :

وهي قوله : ﴿يَبْنِيْ اَقِمِ الصَّلَاةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلَى مَا اَصَابَكَ﴾ وذلك بقوله : ﴿اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُوْر﴾ أي : من الأمور التي أمر الله تعالى بها وأكد على فعلها .

هذا ؛ وقد قال الطبري رحمته الله في تفسير الآيات إجمالاً :

«يقول تعالى ذكره مخبراً عن قول لقمان لابنه : ﴿يَبْنِيْ اَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ بحدودها ﴿وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول : وأمر الناس بطاعة الله ، واتباع أمره ، ﴿وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يقول : وانه الناس عن معاصي الله ومواقعة محارمه ﴿وَاَصْبِرْ عَلَى مَا اَصَابَكَ﴾ يقول : واصبر على ما أصابك من الناس في ذات الله إذا أنت أمرتهم بالمعروف ، ونهيتهم عن المنكر ، ولا

يصدنك عن ذلك ما نالك منهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾
يقول: إن ذلك مما أمر الله به من عزم الأمور عزماً منه.

وقال ابن كثير رحمته الله:

«ثم قال: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: بحسب طاقتك وجهدك، ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ اعلم أن الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر، لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور.

وقال القرطبي رحمته الله:

«قوله تعالى: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ وصى ابنه بعظم الطاعات وهي الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا إنما يريد به بعد أن يمثل ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع،

ولقد أحسن من قال:

وابداً بنفسك فانها عن غيها

فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ يقتضي حصاً على تغيير المنكر وإن نالك ضرر، فهو إشعار بأن المغير يؤذى أحياناً، وهذا القدر على جهة النذب والقوة في ذات الله، وأما على اللزوم فلا.

وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله تعالى، وهذا قول حسن لأنه يعم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره، وقيل: إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور، أي مما عزمه الله وأمر به، قاله ابن جريج، ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل

الحزم السالكين طريق النجاة، وقول ابن جريج أصوب.

وقال القاسمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«يَبْنَى أَقِمِ الصَّلَاةَ» أي بحدودها وفروضها وأوقاتها، لتكميل نفسك بعبادة ربك ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، لتكميل غيرك ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾، أي من المحن والبلايا. أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الداعي إلى الحق معرض لإيصال الأذى إليه، وهو أظهر. ويطابقه آية ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: الآية ٣]، ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر. أو إلى كل ما أمر به ﴿مِنْ عَزْرِ الْأُمُورِ﴾ أي مما عزمه الله من الأمور. أي قطعه قطع إيجاب.

ثم يواصل لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نصحه وتذكيره لولده، ويعلمه طرائق التعامل والتحدث مع الناس، ويؤدبه بجملة من الآداب:

فيقول له: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تعرض

بوجهك عن الناس وهم يحدثونك، بل أقبل عليهم وابتسم في وجوههم، ولا تلو عنقك عنهم، فإن هذا من شيم المتكبرين وأخلاقهم.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿أَي: لاوي عنقه تكبراً على الناس وتعالياً عليهم، وكبراً وازدراءً.

ويقول له كذلك: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ينهاه عن المشي في الأرض باختيال وتكبر وتجبر؛ وذلك لأن الله تعالى لا يحب المختال في مشيته الفخور على الناس المتكبر عليهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله:

«وقوله: ﴿وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك

لهم ، واستكباراً عليهم . ولكن أَلِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء في الحديث : «وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَخَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ، وَإِيَّاكَ وَتَسْبِيلَ الْإِزَارِ فَإِنَّهُ مِنَ الْخِيَلَاءِ، وَالْخِيَلَاءُ لَا يُحِبُّهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» .

وقوله : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ، أي : جذلاً متكبراً جباراً عنيداً ، لا تفعل ذلك يبغضك الله ، ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ أي : مختال معجب في نفسه ، ﴿فَخُورٍ﴾ ، أي : على غيره . وقد قال تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ﴿٧٧﴾ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ، وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه .

وقال القرطبي رحمته الله :

«معنى الآية : ولا تُمِلْ خذك للناس كبراً عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم ، وهذا تأويل ابن عباس وجماعة ، وقيل : هو أن تلوي شِدْقِكَ إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره ، فالمعنى : أقبل عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً ، وإذا حدّثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكمل حديثه ، وكذلك كان

النبي ﷺ يفعل .

قلت (القرطبي): ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَبَاغُضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا؛ وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»، فالتدابير: الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه، وإنما قيل للإعراض: تدابر؛ لأن من أبغضته أعرضت عنه ووليته دبرك، وكذلك يصنع هو بك، ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسره ويسرك، فمعنى التدابر موجود فيمن صعر خده، وبه فسر مجاهد الآية، وقال ابن خُوَيْرِزَمَنْدَاد: قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: الآية ١٨] كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة.

وقال القرطبي أيضًا:

«﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾، أي متبخرًا متكبرًا، مصدر في موضع الحال، وهو النشاط والمشي فرحًا في غير شغل وفي غير حاجة، وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر

والخيلاء فالمرح مختال في مشيته» .

هذا؛ وقد وردت في الحث على التواضع والأمر به
نصوص كثيرة:

منها: ما ثبت عند مسلم ^(٣٤) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه أنه قامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيبًا فَقَالَ: «وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ، عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» .

ولقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ» ^(٣٥) .

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القَصص: ٨٣] .

(٣٤) مسلم (٢١٩٨) .

هذا؛ وقد اجتزأت باليسير الذي ذكر، وإلا فالباب واسع جداً، والنصوص فيه كثيرة متعددة.

(٣٥) مسلم (٢٥٨٨) .

وكذا وردت نصوص في ذم الكبر والاختيال
والفخر:

منها: قول الله تبارك وتعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَآيَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦].

وأخرج مسلم ^(٣٦) في «صحيحه» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ» ^(٣٧) وَغَمَطُ النَّاسِ» ^(٣٨).

وصحَّ عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله أنه قال: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءً» ^(٣٩).

(٣٦) مسلم (٩١).

(٣٧) **بطر الحق:** هو ردُّ الحق ودفعه وإنكاره كبرًا وتعالى وترفعًا وتجبرًا.

(٣٨) **غمط الناس:** المراد به احتقارهم وازدراؤهم.

(٣٩) أخرجه البخاري (٥٧٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

وصحَّ عنه أيضًا أنه قال: «بَيْنَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٤٠).

وصحَّ عنه أنه قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ؛ فَهُوَ يَتَجَلَّلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٤١).

ثم يواصل النصيح والتذكير قائلاً:

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾، أي تواضع في مشيك إذا مشيت وفي مسيرك إذا سرت، ولا تستكبر ولا تستعجل، ولا تسرع، بل اقتصد في المشي؛ ليكن المشي معتدلاً بين الإسراع والتباطؤ، لا مسرعاً تمشي فتختل، ولا متباطئاً كمشية المريض أو المتمارض.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٣].

(٤٠) أخرجه البخاري (٥٧٩٠).

(٤١) البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

وكذا يعلمه طريقة التخاطب مع الناس فيأمره قائلاً :
﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي : واخفض صوتك فاجعله وسطاً
أيضاً .

وعلّل ذلك بقوله : ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾
أي : فلو كان في رفع الصوت مطلقاً (في كل وقت) خيراً لما
اختصت به الحمير ، بل الحمير صوتها أنكر الأصوات وأشر
الأصوات وأقبح الأصوات ، وليس لأهل الفضل والصلاح
والخلق الكريم أن يتشبهوا بالحمير - عياداً بالله - .

قال القرطبي في تفسير الآية الكريمة :

يقول : وتواضع في مشيك إذا مشيت ولا تستكبر ولا
تستعجل ولكن اتّدد .

ونقل عن قتادة بسند حسن قال : «نهاه عن الخيلاء» .
ووجه آخر عن قتادة قال : «أمره بالاعتصام في صوته» .
وعن ابن زيد قال : «اخفض من صوتك» .

وأورد عن قتادة كذلك بسند حسن : ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ

لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١﴾ أي: أقبح الأصوات لصوت الحمير أوله زفير وآخره شهيق، أمره بالاعتصاف في صوته.

وهذه طائفة من الفوائد المستنبطة من هذه الموعظة:

الأولى: بيان أن الله سبحانه هو صاحب الفضل، وأن كل ما بنا من نعم فمنه سبحانه، فله النعمة، وله الفضل، وله الشاء الحسن.

فالحكيم حكمته من الله سبحانه، والعالم علمه من الله سبحانه، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: الآية ١٢].

وكذلك ثم آيات أخر يستدل بها في هذا الباب كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: الآية ١١٣].

وكقول موسى عليه السلام للخضر: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا﴾ [الكهف: الآية ٦٦].

فعلى كل عالم أن يدرك ذلك، وعلى كل عاقلٍ وحكيم أن يدرك ذلك، عليه أن يدرك أن ما به من نعمة فمن الله .

كما قال تعالى : ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [التحل: ٥٣] .

الثانية: وجوب شكر الله على نعمه وآلائه وفضله وإحسانه .

الثالثة: الشاء على الشخص الذي يُراد قبولُ قوله، وذلك حتى يلقي قوله قبولاً ، وذلك مأخوذ من الشاء على لقمان قبل ذكر موعظته لولده بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: الآية ١٢] .

الرابعة: استحباب وعظ الوالد لولده؛ وذلك من قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ [لقمان: الآية ١٣] وعلى ذلك أدلة كثيرة أخرى :

منها: قول نوح عليه السلام لولده : ﴿يَبْنِيْ اَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِيْنَ﴾ [هُود: الآية ٤٢] .

وكذا قول يعقوب عليه السلام لبنيه : ﴿يَبْنِيْ اِنَّ اللَّهَ اَصْطَفٰى لَكُمْ

الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ [البقرة: الآية ١٣٢] .

وكذا وصية رسول الله ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها لما استشعر عليه الصلاة والسلام الموت:

أخرج البخاري ومسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «إِنَّا كُنَّا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُ جَمِيعًا لَمْ تُغَادِرْ مِنَّا وَاحِدَةً، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ - عَلَيْهَا السَّلَام - تَمْشِي لَا وَاللَّهِ مَا تَخْفَى مِشْيَتَهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَبَ . قَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي» ، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ - أَوْ عَنْ شِمَالِهِ - ثُمَّ سَارَهَا فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا ، فَلَمَّا رَأَى حُزْنَهَا سَارَهَا الثَّانِيَةَ فَإِذَا هِيَ تَضْحَكُ ، فَقُلْتُ لَهَا أَنَا مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ : خَصَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالسَّرِّ مِنْ بَيْنِنَا ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهَا عَمَّا سَارَكَ ، قَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِرَّهُ ، فَلَمَّا تُوفِّي قُلْتُ لَهَا: عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَا لِي عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ لَمَّا أَخْبَرْتَنِي؟ قَالَتْ: أَمَّا الْآنَ فَنَعَمْ ، فَأَخْبَرْتَنِي قَالَتْ: أَمَّا حِينَ سَارَنِي فِي الْأَمْرِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً ، وَإِنَّهُ قَدْ عَارَضَنِي بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ ، وَلَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا

قَدْ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِيَ اللَّهَ وَاصْبِرْ، فَإِنِّي نِعَمَ السَّلَفُ أَنَا لِكَ،
قَالَتْ: فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزْعِي سَارَّني .
الثَّانِيَّةُ. قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ، أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ
الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ» (٤٢).

الخامسة: بيان خطر الشرك، وأنه ظلمٌ عظيمٌ.

السادسة: الوصية بالوالدين والتنصيب على الأم بذكر
فضلها، وما بذلته من جهدٍ لرعاية ولدها، وتقديم الشكر
لهما.

وقد دلت على ذلك أدلة كثيرة من كتاب الله ﷻ،

ومن سنة رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ
كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ

(٤٢) البخاري (مع الفتح / ١١ / ٧٩)، ومسلم (مع النووي / ١٦ / ٥).

قال القرطبي رحمته الله:

وقوله: ﴿يَتَنَبَّأُ﴾ ليس هو على حقيقة التصغير، وإن كان على لفظه،
إنما هو على التريق كما يُقال للرجل: يا أخِي، وللصبي هو (كويس).

وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ [الأحقاف: الآية ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [العنكبوت: الآية ٨].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُ اللَّذَيْنِ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ [لقمان: الآية ١٤].

فيأمر الله ﷻ في هذه الآية الكريمة بشكره وشكر الوالدين.

وفي معرض الشاء على الأنبياء ومدحهم يأتي الثناء عليهم لبرهم بوالديهم:

قال الله - سبحانه - في شأن نبيه يحيى بن زكريا عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٤].

وهذا نبي الله عيسى عليه السلام يتكلم في المهد فيقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٢] .

السابعة: بيان مدة الرضاعة، وأنها ستان، وبعد الستين فالرضاعة لا تحرم.

هذا؛ وقد استنبط بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: الآية ١٤] .

وقوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: الآية ١٥] أن أقل مدة للحمل ستة أشهر، والله أعلم.

هذا؛ ومما يؤكد أن الرضاعة المحرمة إنما هي الرضاعة في الصغر والغلام دون الحولين ما يلي:

قول الله سبحانه: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۖ﴾ [البقرة: الآية ٢٣٣] .

قال القرطبي رحمته الله في تفسير هذه الآية:

«انتزع مالك - رحمه الله تعالى - ومن تابعه وجماعة من العلماء من هذه الآية أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب إنما هي ما كان في الحولين؛ لأنه بانقضاء الحولين تمت الرضاعة، ولا رضاعة بعد الحولين معتبرة، هذا قوله في «موطئه»^(٤٣).

وعن عائشة رضي الله عنها^(٤٤): أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا رَجُلٌ، فَكَأَنَّهُ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ، كَأَنَّهُ كَرِهَ ذَلِكَ فَقَالَتْ: إِنَّهُ أَخِي، فَقَالَ: «انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ»^(٤٥) فَإِنَّمَا الرِّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ.

(٤٣) لفظ مالك في «الموطأ» (ص ٦٠٤) في النسخة التي بين أيدينا: الرضاعة قليلها وكثيرها تُحرّم، فأما ما كان بعد الحولين فإن قليله وكثيره لا يُحرّم شيئاً، وإنما هو بمنزلة الطعام.

(٤٤) البخاري (٥١٠٢)، ومسلم (١٤٥٥).

(٤٥) قال الحافظ في «الفتح» (٩ / ١٤٨):

والمعنى: تأملن ما وقع من ذلك هل هو رضاع صحيح =

= بشرطه، من وقوعه في زمن الرضاعة، ومقدار الارتضاع؛ فإن الحكم الذي ينشأ من الرضاع إنما يكون إذا وقع الرضاع المشروط.

قال المهلب: معناه: انظرن ما سبب هذه الأخوة، فإن حرمة الرضاع إنما هي في الصغر حتى تسد الرضاعة المجاعة. وقال أبو عبيد: معناه أن الذي جاع كان طعامه الذي يشبعه اللبن من الرضاع لا حيث يكون الغذاء بغير الرضاع.

وقوله: «فإنما الرضاعة من المجاعة» فيه تعليل الباعث على إمعان النظر والفكر؛ لأن الرضاعة تُثبت النسب وتجعل الرضيع محرماً. وقوله: «من المجاعة» أي الرضاعة التي تثبت بها الحرمة وتحل بها الخلوة هي حيث يكون الرضيع طفلاً يسد اللبن جوعته؛ لأن معدته ضعيفة يكفيها اللبن وينبت بذلك لحمه فيصير كجزء من المرضعة فيشترك في الحرمة مع أولادها، فكأنه قال: لا رضاعة معتبرة إلا المغنية عن المجاعة أو المطعمة من المجاعة، كقوله تعالى: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ [فُرَيْش: الآية ٤].

ومن شواهد: حديث ابن مسعود: «لا رضاع إلا ما شدَّ العظم وأنبَت اللحم». [أخرجه أبو داود مرفوعاً وموقوفاً].

وحديث أم سلمة: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء». [أخرجه الترمذي وصححه]. قاله الحافظ في «الفتح».

وأخرج الترمذي بسندٍ صحيحٍ من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ إِلَّا مَا فَتَقَ الْأَمْعَاءُ فِي الثَّدْيِ وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ» (٤٦).

وأخرج عبد الرزاق بسندٍ صحيحٍ عن أبي عطية الوادعي قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: إنها كانت معي امرأتي فحُصر لبنها في ثديها، فجعلت أمصه ثم أمجّه، فأتيت أبا موسى فسألته فقال: حرمت عليك، قال: فقام وقمنا معه حتى انتهى إلى أبي موسى، فقال: ما أفيت هذا؟ فأخبره بالذي أفناه. فقال ابن مسعود، وأخذ بيد الرجل: أرضيعاً ترى هذا؟ إنما الرضاع ما أنبت اللحم والدم، فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شيء ما كان هذا

(٤٦) الترمذي (١١٦٢) مع التحفة).

وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ، أَنَّ الرِّضَاعَةَ لَا تُحَرِّمُ إِلَّا مَا كَانَ دُونَ الْحَوْلَيْنِ، وَمَا كَانَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ الْكَامِلَيْنِ فَإِنَّهُ لَا يُحَرِّمُ شَيْئًا.

الحبر بين أظهركم^(٤٧).

وأخرج سعيد بن منصور بسندٍ صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لا رضاع إلا ما كان في الحولين»^(٤٨).

وأخرج مالك^(٤٩) بسند صحيح عن عبد الله بن دينار أنه قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمر وأنا معه عند دار القضاء، يسأله عن رضاعة الكبير؟ فقال عبد الله بن عمر: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني كانت لي وليدة^(٥٠)، وكنت أطؤها، فعمدت امرأتي إليها فأرضعتها فدخلتُ عليها، فقالت: دونك فقد والله أرضعتها، فقال عمر: أوجعها^(٥١) واثت جاريتك^(٥٢) فإنما الرضاعة

(٤٧) «المصنف» (٧ / ٤٦٣).

(٤٨) سعيد بن منصور في «السنن» (٩٨٠).

(٤٩) «الموطأ» (ص ٦٠٦).

(٥٠) المراد بالوليدة: الأمة.

(٥١) أوجعها: أي اضربها ضرباً موجعاً.

(٥٢) واثت جاريتك: أي جامعها.

رضاعة الصغير.

الثامنة: الإحسان إلى الوالدين الكافرين أيضًا، ومصاحبتهما بالمعروف في الدنيا، وإن كان مشركين.

لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: الآية ١٥].

فمع عدم الطاعة فيما يدعوان إليه من الشرك هناك مصاحبة بالمعروف.

قال الله ﷻ: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنِّلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يَخْرِجُواكُمْ مِّنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِّنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) [الممتحنة: ٨، ٩].

وأخرج البخاري ومسلم^(٥٣) من حديث أسماء بنت أبي

(٥٣) البخاري مع «الفتح» (٥/ ٢٣٣)، ومسلم (٣/ ٤١).

بكر رضي الله عنه قالت: قَدِمْتُ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ ^(٥٤) وَمُدَّتْهُمْ إِذْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ ﷺ مَعَ ابْنِهَا، فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ ^(٥٥) أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ».

التاسعة: بيان أن الطاعة إنما تكون في المعروف، ولا طاعة لأحدٍ يأمر بمعصية الله أو بالشرك به، وعلى ذلك بعض الأدلة.

أخرج البخاري ومسلم ^(٥٦) من حديث علي رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا فَأَوْقَدَ نَارًا وَقَالَ:

(٥٤) عند البخاري مع «الفتح» (٢٨١/٦)، في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومُدَّتْهُمْ، قال الحافظ «الفتح» (٢٣٤/٥): وأراد بذلك ما بين الحديبية والفتح.

(٥٥) في قوله: **(راغبة):** أقوال، والذي عليه الجمهور - كما نقله الحافظ في «الفتح» - أنها قدمت طالبة في برٍّ ابنتها لها خائفة من ردّها إيّاها خائبة.

(٥٦) أخرجه البخاري مع «الفتح» (٢٣٣/١٣)، ومسلم (١٨٤٠).

ادْخُلُوهَا فَأَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا، فَذَكِّرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: «لَوْ دَخَلُوهَا، لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وَقَالَ لِلْآخَرِينَ: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ؛ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» (٥٧).

وأخرج أحمد (٥٨) بإسناد صحيح عن حنظلة بن خويلد العنبري قال: بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ مُعَاوِيَةَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ فِي رَأْسِ عَمَّارٍ، يَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: لِيَطْبَ بِهِ أَحَدُكُمَا نَفْسًا لِمَصَاحِبِهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاطِلَةُ».

(٥٧) وصح عن النبي ﷺ كما في البخاري (١٣ / ١٢١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». وقال الله ﻋَﻠَﻴْهِ: «وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» [الكهف: الآية ٢٨].

(٥٨) أحمد في «المسند» (٢ / ١٦٤، ١٦٥).

قَالَ مُعَاوِيَةُ: فَمَا بِأَلْكَ مَعَنَا. قَالَ: إِنَّ أَبِي شَكَانِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَطِيعْ أَبَاكَ مَا دَامَ حَيًّا وَلَا تَعْصِهِ» فَأَنَا مَعَكُمْ وَلَسْتُ أَقَاتِلُ.

فعبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وإن أطاع أباه لكون النبي ﷺ أوصاه بذلك فقال: «أَطِيعْ أَبَاكَ مَا دَامَ حَيًّا وَلَا تَعْصِهِ»، إلا أنه لم يقاتل المسلمين، ولم يرفع سيفه عليهم - رضي الله عنه وأرضاه -.

وهذا مزيد من الأدلة في النهي عن تقليد الآباء فيما هم عليه من كفر وعصيان وبدعة ومنكر وضلال:

حيث إن هذا التقليد الأعمى سبيل أهل الكفر والضلال.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلَفُوا ءَابَاءَهُمْ صَالِينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ مُهْرُغُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصفات: ٦٩، ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا

يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ [البقرة: الآية ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: الآية ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف: ٢١ - ٢٣].

العاشرة: الحث على سلوك سبيل أهل الفضل والصلاح.

الحادية عشرة: التذكير بالآخرة وبالمرجع والمآب، وذلك من قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾.

الثانية عشرة: تعليم الأبناء مراقبة الله تعالى، وأنه يراهم ويطلع عليهم، وعلى أعمالهم، وأنه سيوافيهم بها يوم

القيامة .

الثالثة عشرة: بيان عظم شأن الصلاة، وعظم شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى .

الرابعة عشرة: التأدب عند مخاطبة الناس وعدم الإعراض بالوجه عنهم، والتأدب في المشي والنهي عن الاختيال والفخر .

الخامسة عشرة: في الآيات إثبات صفة المحبة لله ﷻ ، وذلك من المفهوم المخالف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ .

وفي الباب أدلة كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٤٦] ، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٤] .

السادسة عشرة: بيان أدب السير في الطرقات .

السابعة عشرة: بيان أدب التخاطب والتحدث مع الناس، وفضيلة خفض الصوت بالقدر الذي يسمع من

تحدثه .

الثامنة عشرة: جواز ضرب الأمثال بالحُمر ونحوها للتفكير من خصالها، وبيان أنكر الأصوات، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ».

التاسعة عشرة: مشروعية التذكير بقصص ومواعظ السابقين للاستفادة منها .

العشرون: بيان فضيلة لقمان رحمه الله ورضي عنه .

الحادية والعشرون: ذكر طائفة من أسماء الله الحسنى كالغني، والحميد، واللطيف، والخبير .

فهذه بعض الفوائد، وثُمَّ فوائدٌ أُخر يضيق المقام بذكرها .

وهذا كله من فضل الله ﷻ ، ثم من بركة هذا الكتاب العزيز فهو كتاب مبارك، كما وصفه الله تعالى إذ قال: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٠] ، وكما قال: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: الآية ٢٩] .

فنسأل الله أن ينفعنا ، وأن يرفعنا بهذا الكتاب العزيز .
 وأن يجعله شاهدًا لنا لا علينا . وأن يشفعه فينا يوم نلقاه .
 كما أسأله سبحانه أن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين ،
 وأن يجعلنا مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين
 والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقًا .
 هذا ؛ وما كان من صواب في هذه الرسالة فمن فضل
 الله سبحانه ، فله النعمة ، وله الفضل ، وله الشاء الحسن .
 وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان ، والله
 ورسوله بريئان من ذلك ، وأتوب إلى الله وأستغفره .
 هذا ؛ وصلّ اللهم على نبينا محمد وسلم تسليمًا كثيرًا .
 والحمد لله رب العالمين .

كتبه

أبو عبد الله

مصطفى بن العدوي

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٧	 موعظة لقمان رضي الله عنه لولده
١٤	 هل لقمان رضي الله عنه نبي أم ليس بنبي؟
١٦	 معاني الحكمة
١٧	 بيان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لفضل الحكمة ومن يؤتاها
١٨	 شكر النعم سبب عظيم من أسباب زيادتها
٢٥	 الموعظة مع شرحها وفوائدها وتفسير آياتها
٢٦	 الوصية الأولى التحذير من الشرك
٣١	 الوصية الثانية الوصية بالوالدين
٣٨	 وهذه وصية بالأم أيضاً
٥٢	 الوصية بالصلاة
٥٥	 الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٥٦	 خيرية هذه الأمة
٥٦	 النهي عن المنكر سبب من أسباب السلامة والنجاة
٥٩	 حث النبي ﷺ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

- ٦٠ تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أهل العلم .
- ٦٢ فضيلة الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...
- ٦٥ تأكيد لقمان رضي الله عنه على هذه الأمور التي وعظ ابنه بها
- ٦٨ طرائق التعامل والتحدث مع الناس
- ٧٢ الحثُّ على التواضع والأمر به
- ٧٣ ذم الكبر والاختيال والفخر
- ٧٦ طائفة من الفوائد المستنبطة من هذه الموعظة
- ٨٠ الثناء على الأنبياء ومدحهم لبرهم بوالديهم
- النهي عن تقليد الآباء فيما هم عليه من كفر وعصيان
- ٨٩ وبدعة ومنكر وضلال
- ٩٤ الفهرس



